المقدّمة:

حظِيَ الشعرُ العربيُّ بمكانةٍ متميّزة مَرموقة، جعلت منه عنصراً مهمّاً في دراسة الحضارة والبيئة والمجتمع، ولذلك انكبَّ عليه أغلبُ الباحثين والدّارسين للحِفاظ على هذا التُّراث الضَّخم الذي يُعَدُّ سِجِلاًّ تاريخيّاً، واقتصاديّاً، واجتماعيّاً، وسياسيّاً وفكرياً لحياة الأمّة.

ومن أهمّ هذه المصادر التي احتفظت بالشعر، وكانت مرجعاً مُهمّاً من مراجع العربيّة: **كتاب المفضليّات** الذي يُعَدُّ مصدراً شِعريّاً ولُغَويّاً مهمّاً من مصادر الشعر العربيّ القديم، وقد سُمِّيت باسم جامعِها **المفضل الضبيّ** الذي اجتهد فيها على اختيار أفضلِ القصائد وأجودها لشعراء جاهليّين ومخَضرمين وإسلاميّين.

وقد تبوّأت أشعار المفضليّات مكانة كبيرة في الدِّراسات الأدبيّة والألسُنِيّة والنَّقديّة القديمة والحديثة؛ ذلك لأنّ المفضل الضبيّ جمع في اختياراته قصائد تُعدُّ من روائع الشعر العربيّ القديم وأجوده، حتى إنّها جسَّدتْ الرُّوح واللُّغة والـمُثل والأخلاق العربيّة خيرَ تمثيل، ولأنّ لغةَ الشعر لغةٌ خاصّة، فيُعدُّ مرآةً لحياة العرب يعكس فيه عاداتِهم وأخلاقَهم، وشيمَهم العربيّة، وما خاضوه من حروب ومعارك.

وعملت المفضليّات على وصف الماضي بأفكاره وتجليّاته وقيَمه ومبادئه وأخلاقه، فقد انطلق من قلب الصحراء وقسوتها. وجاءت المفضليّات باستصفاء أبرز الشعراء وأشعارهم، وتجلَّت الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة والفكريّة بوضوح في شعرهم.

فالمفضل الضبيّ حفظ لنا من خلالها أشعاراً كثيرة قديمة، كانت عُرضة للضياع، فقد حفظ على العرب تاريخَ مجدهم الأدبيّ، فهي لا تُعنى بجمع شاعر واحد، أو شعر قبيلة فقط، بل هي مجموعة أشعار يصدّر جامعُها مبدأً أساسيّاً؛ وهو أن تكون قصائدها طرازاً عالياً في الشعر، أو مصوّرة للمَثل الأعلى الشعري، فأورد لنا في مختاراته

الشعرية أشعاراً لشعراء عاشوا في الجاهلية قبل ظهور الإسلام وهم الجاهليون، ومنهم من عاش الجاهلية وأدرك الإسلام، وهم المخضرمون، ومنهم عاش حياته كلها في الإسلام وهم الشعراء الإسلاميون.

وكان بحثي في إحدى قصائد الهجاء للشاعر المخَضرم **المزرد بن ضرار**،والذي عاش في الجاهلية وصدر الإسلام الأول ، وقد قسَّمتُ الدِّراسة إلى مقدِّمة، ومدخل، وثلاثة مباحث وخاتمة، جاءت متضمِّنة أهمَّ نتائج الدِّراسة التي خرجت منها، واعتمدْتُ المنهجَ الاجتماعيَّ وكذلك المنهج الوصفيَّ التحليليَّ في تحليل الصورة لدى الشاعر ومصادرها وَفق ما تستدعيه القضايا المطروحة.

مدخل:

كان العرب أهلَ رواية، اضطرَّهم إليها ما كانوا يعيشونه من أُمِّية وعدم توافر وسائل لتدوين العلوم والمعارف، وكانوا يتميَّزون بصفاء الذِّهن وجَوْدة القرائح، فسهّل ذلك لهم القدرة على الرِّواية وحفظ العلوم وتناقلها، ولـمّا جاء الإسلام نقلهم من الجاهليّة والأُمّية إلى الهداية والتعلُّم، ومن التنقُّل والتِّرحال إلى الاستيطان والاستقرار، مع ما توافر لهم من صناعة الورق، فازدهرت رياض العلم وكثُر طلّابه، وذلك في بداية القرن الثاني.

فبدؤوا بجمع تراثهم اللُّغوي الذي هو عمادهم، وكان أوّل هذا التراث جمع شعر الأسلاف من عرب الجاهليّة والمخَضرمين، فخلّد مآثرهم، وأبرز مفاخرهم، وسجّل حياتهم ، وكان مصدراً لعلومهم، وكان لجمعهم الشعر عدّة مناهج؛ إمّا أن يجمعوا شعر كلّ شاعر على حِدة: كدواوين الشعراء، أو يجمعوا شعر كل قبيلة، أو يجمعوا قصائد كاملة ذات معانٍ متنَاسبة، ومناسبات متقاربة وأزمنة متجاورة كالمفضليّات.

وكانت لهذه المجموعات الشعريّة فائدة تختلف عن فائدة الدَّواوين، لأنّ الديوان ضيّقُ الأفق ويختصُّ بموضوع محدَّد في دراسة شاعر بذاته، أمّا المختارات فهي أوسع أفقاً، وتتنوَّع مواضيعها بتعدُّد شعرائها، وتصويرها للحياة الفنّية، ودلالتها على

ذَوْق العصر الذي تصنَّف فيه، وعلى ذَوْق مؤلِّفها: **أي تعكس لنا المثل الشعري الأعلى في التصور والذوق العربي**.[1]

[1] انظر، الصورة الفنية في المفضليات، الدكتور زيد من محمد بن غانم الجهني، مكتبة الملك فهد الوطنية، وزارة التعليم العالي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، ١٤٢٥.

المبحث الأوّل

وللتعريف بالمفضليات سأتناول ما يأتي:

جامعها (اسمه وكنيته):

هو راوية من رواة الشعر العربيّ، وعالم من علماء اللُّغة معروف ومشهور، اسمه: "المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر بن سالم بن الرمال من بني ثعلبة بن السيد بن ضبّة، ويقال له ابن أبي ضبّة"[١].

مكانته العلمية:

"يُعدُّ المفضل إماماً في اللُّغة والنحو، راوية للآداب والأشعار، وكان ثقة من أكابر الكوفيّين، هو أحد أفراد الجيل الأول من الرُّواة، وتُنسَب له صناعة الدَّواوين، وعالماً بالأخبار والشعر والعربيّة "[٢]. وقال عنه صاحب المزهر في حديثه عن رواة البصرة: " كان للكوفيّين من علماء البصرة المفضّل بن محمّد الضبي، وكان عالماً بالشعر، وكان أوثق من روى الشعر من الكوفيّين، ولم يكن أعلمهم باللُّغة والنحو إنَّما كان يختصُّ بالشعر، وقد روى عنه أبو زيد شعراً كثيراً، قال أبو حاتم: كان أوثق مَن بالكوفة من الشعراء المفضل الضبي، وكان يقول: إنّي لا أُحسن شيئاً من الغريب ولا من المعاني، ولاتفسير الشعر. إنما كان يروي شعراً مجرداً"[٣].

---

(١) الفهرست، ابن النديم، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ص ١٠٨ .

(٢) انظر، معجم الأدباء، إرشاد الأريب في معرفة الأديب، تأليف ياقوت الحموي الرومي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ٦، ص ٢٧١٠.

(٣) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، الجزء ٢، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص ٣٤٨.

"وممّا يدلّ على علوِّ مرتبته في العلم وفي الشعر خاصّة إعجاب أبي جعفر المنصور بعلمه، وإلزامه ابنه (المهديّ) ليعلِّمه العربيّة، وكونه عفا عنه بعد استحقاقه السجن -إن لم يكن القتل- لمناصرته العلويّ الثائر"[1].

ولادته ووفاته:

ليس عندنا خبر عن تاريخ مولده، ولكنّ شيوخَه الذين سمع منهم كانت وفاتهم بين سنتَي ١٣٢ -١٤٨. ونعرف أنّ المفضل كان قد خرج مع إبراهيم بن عبدالله بن حسن كما تقدّم، وأُسر المفضل في الوقعة، وكانت سنة ١٤٥. فالظنّ أنّه وُلد في العشر الأول من القرن الثاني.

أمّا تاريخ وفاته: فإن كل الذين ترجموا له، ما بين مُسهب وموجز، سكتوا عنه إلاّ ثلاثة: الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام وميزان الاعتدال، والحافظ ابن الجزري في طبقات القرّاء، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، أرّخه الأوّلان في سنة ١٦٨ والثالث في ١٧١ وكلاهما خطأ فيما نرى. والذي نراه أقرب إلى ما بين أيدينا من نصوص أن يكون تاريخ وفاته سنة ١٧٨.[2]

أسباب جمعها:

"عهد أبو جعفر المنصور للمفضل الضبي بتعليم ابنه المهديّ، وحدث أنْ مرَّ بهما الخليفة يوماً وابنه المهديّ ينشد معلّمه المفضل قصيدة المسيب بن علس: ((**أرحلت من سلمى بغير متاع ...**))، فلم يزل الخليفة واقفاً من حيث لا يشعر به حتى استوفى سماعها، ثم صار إلى مجلس له، وأمر بإحضارهما فحدّث المفضلَ بوقوفه واستماعه

---

(١) الفهرست، ابن النديم، ص ١٠٢.

(٢) انظر، المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٤م، ص ٢٥،٢٦.

لقصيدة المسيب واستحسانه إياها، وقال: لو عمدت إلى أشعار المقلِّين واخترت لفَتاك لكلّ شاعر أجود ما قال لكان ذلك صواباً، ففعل المفضل"[١].

عدد قصائد المفضليات:

عدد القصائد في مجموعة المفضليات ١٢٦ قصيدة، شرحها أبو محمد الأنباريّ الكبير، ويُضاف إليها أربع قصائدَ أُلحقت بها وُجدت في بعض النسخ. فتلك ١٣٠ قصيدة نستطيع أن نجزم أنها ليست كلّها من اختيار المفضّل الضبيّ بل إنه ليس له من الاختيار فيها إلا القليل، وإلاّ أنْ قرأ عليه بعضها تلميذه أمير المؤمنين المهديّ، حين كان وليَّ العهد لأبيه أبي جعفر المنصور، ثم قُرئت عليه ونُسبت إليه وعُرفت باسمه.[٢]

شروح المفضليات:

لقِيت المفضليات إقبالاً من دارسِي اللُّغة العربية عامّة ومن أدبائها خاصّة، فكان كلٌّ منهم يجد فيها ضالَّته المنشودة، وهذا ما حدا بالعلماء إلى تعليمها طلاب العلم وشرحها لهم، والموجود بين أيدينا من تلك الشروح خمسة شروح هي:

١) شرح ابن الأنباري بتحقيق المستشرق يعقوب لايل.[٣]

٢) شرح التبريزي بتحقيق فخر الدين قباوة.

٣) شرح الأخفش والمعروف بـ (كتاب الاختيارين) والمطبوع منه بتحقيق فخر الدين قباوة مجلد واحد فقط، والبقية مفقودة.

٤) شرح المرزوقي وهو مخطوط، وقد تمّ تحقيق جزء من أوّله.

---

(١) انظر، الأمالي، لأبي علي القالي، ١٣٠/٣ - ١٣٢

(٢) المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر، عبدالسلام هارون ص١٠.

(٣) انظر، المصدر نفسه ص١٠.

٥) المفضليات بتحقيق وشرح الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، وتميَّز بالدِّقة والضبط، وإن كان الشرح مختصراً من ابن الأنباري.

ولعلّ هناك شروحاً كثيرة، لم ترَ النُّور بعد، إما لفقدها أو لعدم وصول يدِ باحث إليها.

وسأعتمد في دراستي هذه على ما حقّقه الأستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون؛ لأنه أشمل الشروح وأدقُّها، ولاعتنائهما بالنصِّ كثيراً.

منهج المفضل الضبي في المفضليات:

وتُعتبر المفضليات أولَ كتابٍ يضمُّ مُختارات من الشعر الجاهليّ والمخضرم والإسلاميّ بروايات موثوق بها، كما يضمُّ قصائدَ كاملة كانت أروع ما في الشعر العربي. والمفضل الضبي لم يلتزم منهجاً محدَّداً في كتابه بل سردها سرداً عشوائيّاً دون أن تخضع لترتيب زمنيّ ولا بحسب موضوعات القصائد، ولا حتى بحسب أهميّة الشعراء أو أقدمهم، ولا بحسب القوافي، وكتابه يخلو من المقدّمة. وافتتحه بقصيدة للشاعر **تأبّط شراً**.

والمفضل الضبي كتب جميع القصائد التي اختارها ولم يقتطع منها شيئاً، فتُعَدُّ أقدم مجموعة شعريّة وصلت إلينا هي مجموعة المفضليات، وهي بمثابة مرآة لحياة العرب انعكست عليها عاداتهم وأخلاقهم وشيمهم العربية، وما خاضوه من حروب ومعارك ، وبذلك حفظت لنا أشعارا كثيرة وقديمة، وكانت عُرضة للضياع لولا اختيار المفضل الضبي لها وتصنيفه لها في كتابه. ومن قصائدها: قصيدة الشاعر المخضرم (المزرد بن ضرار) الهجائية التي كانت موضوع بحثي.

المبحث الثاني

لمحة عن حياة الشاعر المزرد بن ضرار:

اسمه: يزيد بن ضرار بن حرملة بن صيفي بن أصرم بن إياس بن عبد غنم بن جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان، الذبياني الغطفاني، شاعر فارس مشهور

لقب بالمزرد لبيت قاله فيه زبدة:

فقلت تزردها عبيد فإنني لدرد الموالي في السنين مزرّد

كان يُكنّى أبا حسن وقيل أبا ضرار، ويبدو أنّ الكُنية الأولى هي الغالبة.

وقالت ألا تثوي فتقضي لبانة أبا حسن فينا وتقصي مواعدي

وأدرك الإسلامَ وله صحبة، وهو أخ لاثنين من شعراء عصر الإسلام، الأول الشماخ وهو أشهرهم، والثاني جَزْء بن ضرار أحد شعراء (الحماسة) وكان المزرد أسنّ منهما، وكان له ولدان هما: حسن وكثير ويبدو أنهما كانا شاعرَين.

وما يلاحَظ في المزرد قلّة أخباره واختلاطها بأخبار الشماخ، فلم ينشُر إليه المؤرِّخون إلّا لماماً، وإن فعلوا فأسطر لا تُغني ولا تنفع، وبعضهم فعل ذلك بسبب بذاءة لسانه وعدم تورُّعه من هجاء قومه وضيوفه.[1]

وفاته:

كما نجهل تاريخ ولادته فإنّنا نجهل تاريخ وفاته، فلم تُشر المظانُّ التي بين أيدينا إليه من بعيد أو قريب، ويفترَض أنها كانت نحو ١٠ه، إلّا أنّ ورود ذكر لعثمان بن

---

[1] ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني، تحقيق خليل إبراهيم العطية، مطبعة أسعد، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ، ١٩٦٢م، ص ٧، ٨.

عفان رضي الله عنه غير مرّة في شعره يشير إلى معاصرته له، وإذ ذاك يكون الافتراض المذكور مشكوكاً فيه".[1]

شعره:

ليس في شعر المزرد ما يميّزه عن الشّعراء المخضرمين من حيث ألفاظُه وتراكيبُه، فألفاظه في الأعمّ الأغلب بدويّة، وتراكيبه جزلة متينة شأنه في ذلك شأن من تقدّمه، وتناوَل المزرد في شعره الهجاء والنسيب والفخر.. أما هجاؤه فقد أعدّه لقَومه وضيوفه..! وخصّص نسيبه لتسجيل عواطفه وحبّه لـ(سلمى)، وأبقى الفخر لنفسه فهو الفارس الحامي الذمار والكريم العزيز الجانب.. وهو إلى جانب ذلك شاعر مجيد إذا رمى امرءاً بقافية تركها سمةً يوسَم بها (كشامة وجه ليس للشام غاسل)!!.[2]

هجاؤه:

كانت الأسباب التي ألجأته إلى هجاء قومه كما يدّعي هو: حسدهم له، وبعضها يشير إلى إخلافهم ظنّه بهم. فمن ذلك: أنّه قصدهم هو ورجل من بني ثور اسمه هيثم بعد أن أثقلهما الدَّيْن يبغيان قومهما في الكوفة، وبعد طريقهما الشاقّ الطويل بين المدينة والكوفة وربما منّى المزود نفسه بالهبات والعطاء الجزيل، فأعطي هيثم ما أرضاه وكان نصيب المزرد أن تركه قومه في العراء ينهال عليه المطر، وتركوا راحلته تمشي خلال الدُّور لا يعلفونها. وأخرى أنهم وضعوا عرسه على بعير صعب سرعان ما نفر بها فتهشّم مقدّم فِيها.

فهو قال - ما قال - بدافعٍ من الانفعال والحنق وربما الطيش!

---

[1] ديوان المزرد بن ضرار، ص ٨.
[2] انظر، المرجع نفسه، ص ١١.

ولعلّ سبب هجائه لأضيافه جشعه وضيق ذات يده، أو لإساءتهم إليه، وحين تقدّمت به السنُّ تاب عن الهجاء إثر شكايةٍ لعثمان بن عفان، وأنّ شتم الرجال أمر لا تُحمد مغبّته، يقول:

تبرأت من شتم الرجال بتوبة إلى الله مني لايُنادى وليدُها.[١]

مقام القصيدة ومناسبتها:

"كان أهل بيت من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، رهط مزرد، جاوَروا في بني عبد الله بن غطفان، فذهب رجل من بني عبد الله إلى غلام من بني ثعلبة، يقال له خالد، وللغلامِ إبلٌ كرامٌ حِسان، فلم يزَلْ الرَّجل يخدع خالداً حتى اشترى الإبلَ منه بغَنم، فرجع الغلامُ إلى أبوَيه فأخبرهما، فقالا: هلكتَ والله وأهلكتَنا. ثمّ إنّ أبا الغلام ركِب إلى مزرد وقصَّ عليه القِصّة، فقال مزرد: أنا ضامن لك إبلَك أن تُرَدَّ عليك بأعيانها. فأنشأ هذه القصيدة، وبدأها بذكر معاهد سلمى حبيبته وموقفَ وداعِها، ثمّ أشار إلى القصَّة، ونَعَتَ الإبلَ المبيعَة، وأهاب بزرعة بن ثوب أن يَردَّ الإبل، وهجاه أشدَّ الهجاء وأقذعَه، وتهدَّده أن يشهِّر به وبخدعته الثعلبي، ونوَّه بعد بوفاء كثير من العرب".[٢]

قال مزرد بن ضرار الذبياني: [٣]

١: أَلاَ يا لقَوْمِ والسَّفَاهةُ كَاسْمِـــــها أَعائِدَتي مِـــن حُـــــبِّ سَلْمَى عَوائِدي

٢: سُوَيْقَةُ بَلْبَالٍ إلـــى فَلَـــــجاتِها فَذِي الرِّمْثِ أَبكَتْنِي لِسَلْمَى مَعـــاهِدِي

٣: وقامتْ إلى جَنْبِ الحِجَابِ ومـــا بِها مِن الوَجْدِ، لـــولا أَعْيُنُ النَّاسِ، عامِدِي

٤: مَعاهِدُ تَرْعَى بَيْنَها كـــلُّ رَعْلَةٍ غَرَابِيبُ كالهِنْدِ الحَوَافـــي الحَوَافِدِ

---

(١) انظر، ديوان المزرد بن ضرار، ص ١١،١٢.

(٢) المفضليات، المفضل الضبيّ، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، دارالمعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، ص؟

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٥.

٥: تُرَاعِي بِذِي الغُلاَّنِ صَعْلاً كأَنَّـــه بِذِي الطَّلْحِ جَانِي عُلَّفٍ غيرُ عـــاضِدِ

٦: وقالت أَلاَ تَثْوِي فَتَقْضِي لُبَانَـــةً أَبا حَسَنٍ فِينا وتَأْتِـــي مَوَاعِـــدِي

٧: أَتانِي وأَهْلِي في جُهَيْنَةَ دَارُهـــمْ بِنِصْعٍ فَرَضْوَى مِـــنْ وراءِ المَرَابِدِ

٨: تَأَوَّهُ شَيخٍ قاعِدٍ وعَجُوزِهِ حَـرِيبَيْنِ بالصَّلْـعَـــاءِ ذَاتِ الأَسَـــاوِدِ

٩: وعالا وعاما حِينَ باعـــا بِأَعْنُزٍ وكَلْبَيْـــنِ لَعْبَـانِيَّةً كالـــجلاَمِد

١٠: هِجَاناً وحُمْـــراً مُعْطِرَاتٍ كأَنَّهَا حَصَى مَغْرَةٍ أَلوَانُها كالمَجَـــاسِدِ

١١: تُدَقِّقُ أَوْراكٌ لَـــهُنَّ عِرَضْنَةٌ على مـــاءِ يَمْؤُدٍ عَصـــا كلِّ ذَائِدِ

١٢: أَزُرْعَ بنَ ثَوْب إنَّ جـاراتِ بَيْتِكم هُزِلْنَ وأَلْهَـــاكَ ارْتِغاءُ الرَّغـــائِدِ

١٣: وأَصْبَحَ جاراتُ ابْنِ ثَوْبٍ بَوَاشِماً مـــن الشَّرِّ يَشْوِيهِـــنَّ شَيَّ القَدَائِدِ

١٤: تركتُ ابنَ ثَوْبٍ وهْو لا سِتْرَ دُونَـهُ ولـــوْ شِئْتُ غَنَّتْنِي بـــثَوْبٍ وَلاَئِدِي

١٥: صَقَعْتُ ابنَ ثَوْبٍ صَقْعَةً لا حِجَى لها يُوَلْـــولُ منـــها كلُّ آسٍ وعـــائِدِ

١٦: فَرُدُّوا لِقَاحَ الثَّعْلَبِيِّ، أَداؤُها أَعَفُّ وأَتْقَى مِـــنْ أَذَى غَيْرِ واحِـــدِ

١٧: فإِنْ لَمْ تَرُدُّوهَا فإِنَّ سَمـــاعَهَا لكـــم أَبداً مِنْ باقِيـــاتِ القَلاَئِدِ

١٨: ومـــا خالدٌ مِنَّا، وإِنْ حَلَّ فيكُمُ أَبانَيْنِ، بالنَّائـــي ولا المُتَبـــاعِدِ

١٩: تَسَقَّهْتَهُ عنْ مـــالِهِ إِذْ رَأَيْتَهُ غُلامـــاً كَغُصْـــنِ الْبانةِ المُتَغَايِدِ

٢٠: تَحِنُّ لِقَـــاحُ الثَّعْلَبِيِّ صَبَابَـةً لِأَوْطـــانِها مِـــنْ غَيْقَةٍ فالفَدَافِدِ

٢١: وعَاعَى ابنُ ثَوْبٍ في الرِّعاءِ بِصُبَّةٍ حِيـــالٍ وأُخْرَى لـــم تَرَ الفَحْلَ وَالِدِ

٢٢: فنِعْمَتْ لِقَاحُ المَحْلِ يَهْدِي زَفِيرُها سُرَى الضَّيْفِ أَوْ نِعمتْ مَطايَا المُجاهِدِ

٢٣: أُولئكَ أَو تِلكَ، المُنَاصِي رباعُهـا مع الرُّبْدِ أَوْلاَدُ الهِـــجانِ الأَوَابـــدِ

٢٤: فيا آلَ ثَوْبٍ إِنَّمـــا ذَوْدُ خالِدٍ كَنارِ اللَّظَى، لا خَـــيْرَ في ذَوْدِ خـــالِدِ

٢٥: بهِنَّ دُرُوءُ مِـــنْ نُحَازٍ وغُدَّةٍ لها ذَرِبـــاتٌ كالثُّدِيِّ النَّوَاهِـــدِ

٢٦: جَرِبنَ فمـــــــا يُهنَأْنَ إلاَّ بِغَلْقَةٍ عَطِينٍ وأَبْوَالِ النِّســـاءِ القَوَاعِـــــدِ

٢٧: فلم أرَ رُزْءًا مثلَـــــــــهُ إذْ أتاكُمُ ولا مثلَ مـــــــا يُـــهدَى هديَّةَ شاكِدِ

٢٨: فَيا لَهَفي أَن لاَ تكُونَ تَعـــــلَّقَتْ بِأَسْبابِ حـــبلٍ لِابنِ دَارَةَ مـــــــاجِدِ

٢٩: فَيرْجِعَها قومٌ كأَنَّ أَباهُـــــــــمُ بِبِيشَةَ ضِرْغامٌ طُوَالُ السَّـــــــواعدِ

٣٠: ولو جارُها اللَّجْلاَجُ أَوْ لوْ أَجارَهَا بنو باعثٍ لم تَنْزُ فـــــي حَبْل صائِدِ

٣١: ولو كُنَّ جارَاتٍ لآلِ مُـــــــسافِع لأُدِّينَ هَوْناً مُـــــــعْنِقاتِ المَـــوارِدِ

٣٢: ولو في بني الثَّرْمَاءِ حَلَّتْ تحَدَّبُوا عليها بأَرمـــــــاحٍ طِـــوَالِ الْحَدَائِدِ

٣٣: مصاليتُ كالأَسياف ثُمَّ مَصِيرُهـــم إلـــــى خَفِرَاتٍ كالقَنَا المُـــــــترَائِدِ

٣٤: ولكنَّها فـــي مَرْقَبٍ مُتَنَـــــــاذِرٍ كأَنَّ بـــــها مـــنه خُرُوطَ الجَدَاجِدِ

٣٥: فَقلْتُ، ولم أَمْلِكْ: رِزَامَ بنَ مـازِنٍ إلـــــــى إبَةٍ فيهـــا حَياءُ الْخَرَائِدِ

٣٦:فبِاسْتِ امْرِئٍ كانَتْ أَمانِيُّ نَفْـــسِه هجائي ولَمْ يَجْمَعْ أَدَاةَ الْمُنـــــــاجِدِ

٣٧: وَشالت زِمِجَّى خَيْفَقٍ مَشَجَتْ بـــه خِذاقاً وقـــــــد دَلَّهْنَهُ بالنَّوَاهِـــــدِ

٣٨:فأَيِّهْ بِكنْدِيرٍ حِمارِ ابنِ وَاقِـــــــعٍ رَآكَ بِإيرٍ فاشْتَأَى مِـــــن عُتـــــــائِدِ

٣٩:أَطـــــاعَ لـــهُ لَسُّ الغَمِيرِ بِتَلْعةٍ حماراً يُرَاعِي أُمَّهُ غيرَ سَـــــــــافِدِ

٤٠: ولـــــكِنَّهُ مِـــنْ أُمِّكم وأَبيـــكُم كَجَـــــــــارِ زُمَيْتٍ أَو كعـــائذ زائِدِ

٤١: فقالوا له: اقعُدْ راشداً، قال: إنْ تَكُنْ لِقاحِيَ لم تَرْجعْ فَلَـــــــــسْتُ بـــراشِدِ

٤٢: أَتَذهبُ مـــــن آل الوَحِيدِ ولـــم تَطُفْ بكل مـــــكانٍ أَرْبَعٌ كالخَرَائـــدِ

٤٣: وعَهدي بكم تَسْتَنْقِعُـــونَ مَشَافِراً من المَحْضِ بالأَضياف فَوْقَ المناضد

المبحث الثالث

يشكِّل البناءُ الاجتماعيُّ البدويُّ في الحياة العربية القديمة، مدخلاً مهمّاً في كشف مغـزى شعر شعرائهم، الذي أدّى دوراً بارزاً في التعبير عن تطُّلعات الحياة البدويّة الجاهليّة وما بعد الجاهليّة ، حيث القبيلةُ مثّلتْ قُطب الرَّحى في هذه الحياة، والبعد الأعمق فـي وجـدان الشاعر البدويّ؛ باعتبارها الوطنَ الرّاحل معه أبداً، الذي يقيه من الذَّوَبان فـي هـذا المدى الصحراويّ، ويؤسِّس له شرعيّةً أخلاقيّة وثقافيّة ضمن شروط البيئة والتاريخ.

ومثّلتْ القبيلة خياراً حقيقياً للإنسان البدويّ، الذي وجد نفسه في عالَم قاسٍ بـسبب معطيات الجدب والحرب، وما نتج عنهما من فرض معايير القوّة كمرجعيّة جوهريّة يقومُ عليها البناء القِيَمي في المجتمع البدويّ. ومن خلال اطلاعنا على قصيدة المزرد بن ضرار ظهرت لنا المظاهر الحضارية والبيئة الطبيعية، والوجداني والنشاط الاقتصادي وطبقات المجتمع والعادات والتقاليد.

١) الحالة الحضارية :

لم يكن في الإمكان مقاومة السِّحر البدويّ في معظم الشعر العربيّ، وخاصّة الشعر الجاهليّ والمخضرم، ومن خلال اطلاعنا على الحالة الحضريّة فيه نجد في أبيات القصيدة مظاهر البداوة، فقد تناثرت في معظمها نظراً لأنّ حياة البادية هي الحياة المسيطرة على المجتمع العربي آنذاك.

"إذا كوَّنت البيئة الصَّحراوية حالتهم الاجتماعية وعاشوا على رعْي الأغنام والمواشي يُطعمون من لحمها ولبنها ويكتسون من صوفها"[١].

وقد ظهر لنا الكثير من المفرَدات والمظاهر التي دلَّتْ على الحياة البدوية التي انتمى إليها المزرد بن ضرار، فنجد في بعض الأبيات ألفاظاً تدلُّ على البداوة ورعي الإبل

---

(١) انظر، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، حنا فاخوري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص٧٥.

وأماكن رعوية في ثنايا ومطالع الجبال والوديان. وكان البدوُ يعيشون في رعي الأنعام من إبل وماعِز، ويتميَّزون بالتِّرحال، وامتلأت القصيدةُ بمظاهر البادية من رمال، وموارد مائيّة، وحيوانات وسلاح، ومنها:

البيئة البدوية:

- في البيت (٢) سويقة البال إلى فلجاتها، "وهي مواضع في ثنايا ومطالع جبل المصامة في الحجاز".[١]
- ذوي الرمث، أيضاً "موقع في وادي تبالة وهي مناطق بادية في شبه الجزيرة العربيّة".[٢]
- في البيت (٧) جهينة، "وهي قبيلة استقرَّت في نجد وسط الجزيرة العربيّة فكانت متناثرة في ثنايا الجبال وعُرفت بالبداوة".[٣]
- نصع ورضوى، "أماكن جبليّة تكثُر فيها المراعي وتقع بعيداً عن المُدن".[٤]
- المرابد، "وهي محابس الإبل وغيرها من الدوابّ إذ كانت تُجمع به".[٥]
- في البيت (٨) "الصلعاء ذات الأساود، فالصلعاء موضع لبني الله بن غطفان في الحجاز وتكثر فيها الحيّات وأوكارها".[٦]
- وذكر (أبانين، غيقة، بيشة، جبل إير، الفدافد)، وهي مواضعُ في شبه الجزيرة العربيّة بين نجد والحجاز التي تتميَّز بالبيئة البدويّة، إذ تمتدُّ في صحراء

---

(١) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن العزيز البكري الأندلسي، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب. بيروت، الجزء الثالث، ص ٧٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٧٣.

(٣) انظر، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م، ص ٢١٦.

(٤) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله عبد العزيز البكري الأندلسي، الجزء الثاني، ص ٦٥٥.

(٥) المفضليات مع شرح وافر لابن الأنباري، تحقيق كارلس يعقوب لايل، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت. ١٩٢٠ م، ص ١٢٩.

(٦) شرح اختيارات المفضل، الخطيب التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيَروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص ٣٧٥.

الحجارة الجافة والوعرة، فهي أمكان جبليّة وأودية وهضاب بعيدة عن المدن، والصالحة للزراعة تقوم على أساس القبيلة.[١]

- في البيت(٩) لعبانية كالجلامد، "وهي الحجارة الصُّلبة والملساء الوعرة". [٢]
- في البيت (١٠) حصن مغرة كالمجاسد، "وهي صورة لطبيعة البادية متكوِّنة من الحجارة والحصى مختلفة الألوان". [٣]
- وتشقّ هذه المناطق العديد في الأودية التي تحتفظ بالماء الذي يستخدم للرعي، والذي يشكِّل المصدر الرئيسي لحياة البدوي وأنعامه.
- في البيت (١١) "ماء يمؤد وهو ماء معروف في المنطقة".[٤]
- في البيت (٢١) "معنقات الموارد أي يصور إسراع الإبل في شرب الماء من الموارد". [٥]

[١] انظر، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، الطبعة السابعة، دار المعارف، مصر القاهرة، ١٩١٩م، ص ٥٧.
[٢] شرح الأنباري، ص١٣٠.
[٣] المرجع نفسه، ص ١٣١.
[٤] شرح التبريزي ، ص ٣٧٤.
[٥] المرجع نفسه، ص ٣٧٤.

الحيوان:

وحدَّدت طبيعةُ المنطقة البدويّة الحيوانات التي كانت تُربَّى من إبل وماعز، التي دلّت على هذه البيئة إذا أكثر المزرد من وصفها لما لها من أهمّية عظمى في حياة البدوي. قال الله تعالى: **{وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ*وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تكونوا بالغيه إلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** (النحل، آية : ٥ ـ ٦).[١]

في البيت (٩) (١٠) لعبانية، هجاناً وحمراً، وصف الإبل القوية والشديدة كالحجارة.

في البيت (١١) تدفق أوراكٌ لهنَّ عرضة، "صورة لوصف الإبل القويّة من خلال صورة السقاية إذ يصفها بالقوّة والنشاط فكانوا يضربونها بالعصى لدفعها عن الماء حتى تُكسر عصيُّهم فيبين طابع الخشونة والتوحُّش المتأتّية من عدم الاستقرار الذي تتطلّبه حياة البحث عن الماء والكلأ".[٢]

ومِن هذه الأسماء والأوصاف عُرف البدو بأنّهم أهل الوعر لأنّ الإبل هي قرين البداوة التي كانت مصدر فخرهم ورزقهم.

المأكل:

وتبيّن لنا بعض أنواع المأكل عند البدو الذي دلَّ على العادات الغذائية لديهم، فلا شكَّ بأنَّ البيئة البدويّة لها ما يميّزها من غيرها في أنواع المأكولات؛ إذ يعيش البدوي على رعي الأنعام وهي المصدر الغذائي الرئيسي إذ كان يعيش على لحومها ولبنها.

في البيت (١٢) ارتغاء الرغائد وهو جمع رغيدة "وهي اللبن وكثرته، فهنا تدلّ على خصب المرعى وكثرة لبن الإبل". [٣]

---

(١) القرآن الكريم، سورة النحل، آية (٥،٦).
(٢) شرح الأنباري، ص ١٣١.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٢.

فعندما يكثر اللّبن تكثر الزبدة واللّبن المحض والارتغاء أن يشرب اللّبن برغوته، وكذلك في البيت (٤٣) "كانت لفظة المحض تعني اللّبن الخالص".[١]

ومن المطاعم الذي استخدامها المزرد صورة القديد. ففي البيت (١٣) ذكر لفظ القدائد، "والقدائد هي شرائح اللحم"،[٢] إذ تنشف وتملّح لتجفّ ولتحفظ حتى أوقات طويلة حتى لا تفسد ثمّ تُستعمل للطّهي من فترة إلى أخرى عند أهل البدو، فشبّه بها المزرد ما لحق لجارات ابن ثوب من الأذى بما يلحق القديد من أذى ليجفّ.

التّرحال:

كان التّرحال من مرتكزات الحياة البدويّة، إذ يتجوّل البدوي بحُرّية ويختار من الأرض أجودها. فنمط الحياة البدويّة التّجوال في أرجاء الأرض بحُرّية دون عوائق، لذلك هم ملكوا الأرض ولم تملكهم، ودلّت كثرة الأماكن في القصيدة بكثرة ترحال الشاعر وطبيعته البدوية المتجوّلة في الأماكن، وقد تمثل هذا الأثر واضحاً في المقدمات الطللية التي استفتح بها معظم الشعراء.

(سويقة بلبال، ذي الرمث، نصع، رضوى، الصلعاء، بيشة، أبانين)، وجميعها أماكن مختلفة في شبه الجزيرة العربيّة.

السلاح:

ومن مظاهر البداوة، ألفاظ الحرب التي تبرز في عمق الحياة الاجتماعيّة التي يحياها البدوي العربيّ، إذ كان للسلاح أهمية قصوى في السلم والحرب.

فالبدوي يمتاز ببراعة المقاتلةِ والمدافعةِ عن نفسه وماله وعِرضه، فكان يُحسِن استعمال رمحِه وضرب السيف ليعبّرَ عن القوّة والشجاعة، وكذلك بسبب كثرة الحروب والنزاعات والغزو، ورأينا بعض ألفاظ السلاح في القصيدة.

---

(١) المفضليات، تح. أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ص ٨١.
(٢) شرح الأنباري، ص ١٣٢.

ففي البيت (٣٢) أرماح طوال الحدائد، فالرماح هي سلاح حادّ كانوا يعتمدون عليه في القتال.

وفي البيت (٣٣) مصاليت كالأسياف "وهو السيف إذا جُرِّد من غمده"[١]، والقنا المترائد "وهي الرماح المتمايلة يمنة ويسرة".[٢]

وهكذا نرى بأنّ السمات البدويّة تعدّدت في القصيدة فأعطت انطباعاً عن الحياة التي عاشها المزرد في حياة البيئة البدوية القاسية، واستندت على نمط المعيشة وطراز الحياة، فالبدو يستفيدون من المراعي.

فيمسحون المساحات الواسعة من العشب ليقلبوها بفضل مواشيهم إلى لبن سائل، ويعيشون حياتهم في التّرحال بحثاً عن الكلأ والماء لإبلهم وأنعامهم، فكانت البداوة في حياة المزرد نمطاً اجتماعياً عاشه وتكيّف عليه مع الظروف الصعبة.

٢) البيئة الطبيعية:

وقف الشاعر العربيُّ ليسجِّلَ في شعره أشياء كثيرة في كلِّ ما يراه أو يسمعه في بيئته بملامحها ومشاهدها، ولا سيما أنّ ذاكرته قادرةٌ على تخزين الملامح والمشاهد، فالشاعر ابن بيئته، وأحواله وأطواره تتغيّر تبعاً لتغيُّر البيئة المحيطة به. والمزرد بن ضرار سعى في قصيدته إلى الوصف الدقيق للمكان والحيوان والنبات ما هو موجود في بيئته المحيطة به، لذلك عند النظر للألفاظ في القصيدة نجد فيها وقد تناثرت الألفاظ المتعددة من أوصاف الطبيعة البدوية القاسية في مواضع مختلفة، ومن ثَمّ حمل المزرد مهمّة أن يعرف المتلقّي بهذه البيئة التي يعيش بها، ومنها:

---

[١] شرح الأنباري، ص ١٣٨.
[٢] المفضليات، تح. أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ص ٨٠.

البقاع:

ففي البيت (٥) الغلان، جمع غال، وهي أودية غامضة في الأرض ذات الشجر، ضيّقة. [١]

ففي البيت (٨) وصف المزرد القاع ب (لعبانية كالجلامد)، أي كحجارة اللعباء، "وحمراء اللعباء تكثر فيه الحجارة الملساء القاسية والأرض الوعرة". [٢]

وفي البيت (٩) وصف تلك الحصى والحجارة ب (حصى مغرة ألوانها كالمجاسد) أي "هذه الأرض تتناثر فيها الحصى المختلفة الألوان والأشكال" [٣]، فيدلّ على مدى قسوة هذه الطبيعة الوعرة، وهذه الطبيعة هي التي تمتاز بها قبيلة الشاعر" جهينة، التي استقرّت في نجد وسط الجزيرة العربيّة، وهي منطقة تحيط بها الجبال وتتميز بأنها هضبة صخرية وعرة، فيها بعض الأودية ومسايل المياه والكثير من التلال"[٤]، ومن مسايل المياه التي ذكرها في المنطقة:

في البيت (١١) ماء يمؤد وهو ماء معروف فيها".[٥]

وبالإضافة إلى أكثر شيء يشدُّ الشاعرَ العربي القديم، وهو كثرة ورود الأماكن والمناطق الجغرافية التي تحيط به، فكانت معظم القصيدة عَرضاً لتلك الأماكن ووصف مواضع الديار، ومنها:

(سويقة بلبال، ذي الرمث، أبانين، بيشة، جبل الرضوى، نصع، جبل إير).

إذا كانت البيئة الطبيعة في تلك المناطق تتميّز بالجبال وقسوتها، فقد تعدّدت الألفاظ لوصف تلك الجبال:

ففي البيت (٢٥) قد شبّه مرض الإبل ب (الدروء)، "والدروء هي نتوء من الجبل".[٦]

---

[١] شرح الأنباري، ص ١٢٩.
[٢] شرح التبريزي، ص ٣٧٣.
[٣] المرجع نفسه، ص ٣٧٣.
[٤] العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ١٨.
[٥] المفضليات، تح، أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ص ٧٧.
[٦] المصدر نفسه، ص ٧٩.

في البيت (٣٤) وصف المزرد المكان التي نزلت به إبل الشيخ والعجوز (بالمرقب المتناذر) "وهو الموضع المرتفع والمخيف في الجبال التي يتحاماه الناس". [١]

وفي البيت (٣٨) العتائد، "وهي هضبات أسفل الجبل".[٢]

الحيوانات:

يعَدُّ الحيوان في قصيدة المزرد مصدراً رئيسياً في الصورة، فصوَّر بعض الحيوانات صوراً متعدّدة الجمال حشد لها من خياله تارة، ومن الطبيعة تارة أخرى، وكان أبرزها الإبل وبعض المواشي التي تميّز طابع البيئة البدوية. فأكثرَ المزرد من ذكر الإبل وأوصافها وطباعها، وتعدّدت الألفاظ التي دلّت عليها في أبيات القصيدة:

ففي البيت (٩) وصفها بأنها لعبانية أي الشديدة القوية، فهي كأرض اللعبانية التي تتميز بالصلابة والحجارة الملساء.[٣]

---

[١] المفضليات، تح، أحمد شاكر وعبدالسلام هارون ، ص ٨٠ .
[٢] المصدر نفسه، ص٨٠.
[٣] المصدر نفسه، ص ٢٦.

في البيت (١٠) وصفها بأنها هجان حمر معطرات كأنهنَّ حص مغرةٍ، "وصف المزرد الإبل البيضاء الكريمة السمان على دبرها صبغٍ من حسنها فكانت عندما تسمن في الربيع تسقط أوبارها وينبت لها وبرٌ جديد وكأنه ملوَّن بالزعفران". [١]

في البيت (١١) "ذكرها بأنها تدفق أوراكٌ لهنٌ عرضةٌ، وصفها بأنها إبل صلبة شديدة متسعة الأوراك لسمنها وقوّتها ونشاطها".[٢]

في البيت (٢٠) لفظ اللقاح، "وهي ذوات الألبان من الإبل التي تحنُّ إلى أوطانها عندما تبعد عن مراعيها الأصليّة".[٣]

في البيت (٢١) ذكر الصبَّة، "وهي الثلاثون من الإبل والغنم".[٤]

في البيت (٢٤) لفظة ذود خالد "والذود هو الجماعة القليلة من الإبل"[٥]، فنلاحظ بأن الإبل استوعبت جميع مظاهر الحياة وقواها، فكانت عنصراً من عناصر الطبيعة الحيّة وغير الحيّة يدخل من مكوناتها.

ومن الحيوانات التي ذكرت (النعام):

وكانت في البيت (٢٣،٥،٤) فذكر بلفظة رعلة وشبهها المزرد وهي ترعى في ديار أحبّته برحال من الهند حفاة الأقدام قصار الخطو وهي ترعى مع ولدها الظليم الذي ذكره بلفظة (صعلاً).

وفي البيت (٢٣) إذ كان الانتقال من موضوع الإبل إلى النعام رفعاً من شأنها لأنّه يصف الإبل من حيث السرعةُ والنجابة بالنعام، كما ذكر المزرد عدداً من الحيوانات التي تسكن تللك البيئة وهي في البيت (٢٩) "الضرغام وهو الأسد" [٦]، وفي البيت (٨) "الأساود وهي الحيّات السوداء" [٧]، وفي البيت (٣٤) "الجداجد وهي

---

[١] شرح التبريزي ص ٣٧٣.
[٢] المرجع نفسه، ص ٣٧٤.
[٣] المفضليات، تحقيق، أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ص ٧٨.
[٤] المصدر نفسه، ص ٧٨.
[٥] المصدر نفسه ص ٧٩.
[٦] المصدر نفسه، ص ٧٩.
[٧] المصدر نفسه، ص ٧٦.

الصراصير"[١]، كما ذكر الحمار في الأبيات (٣٨،٣٩) فهو من حيوانات البيئة البدويّة القاسية ذات الطبيعة الحجريّة، بتحمُّله وعورة البيئة والمناخ.

النباتات:

ويُعدّ النبات من أهمّ السمات الطبيعية لأيّ مجتمع، وقد ظهرت النباتات في القصيدة لتُناسِب ظروف الحياة في تلك البيئة، ولم يُكثر المزرد من ذكر النباتات ولم يذكرها من أجل ذاته إنما كانت على الأغلب غذاءً لحيواناته وإبله أو علاجاً لهم، حيث اشتهرت بها تلك البيئة.

ففي البيت (٥) ذكر نبات (ذي الطلح) وهو "شجرة ثمرها على طلعة نبات اللوبيا أو أصغر وهو نبات تتغذى عليه المواشي فكانت أهميته بكونه علفاً للحيوانات".[٢]

وفي البيت (٢٣) رباعها، "جمع ربع وهو نبات الفصيل الذي ينتج بالربيع ويستعمل علفاً للحيوانات".[٣]

---

[١] المفصليات، تح، أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، ص ٨٠.
[٢] شرح الأنباري، ص ١٢٩.
[٣] المفضليات، تح، أحمد شاكر، عبدالسلام هارون، ص ٧٨.

وفي البيت (٢٦) ذكر المزرد علاج الإبل بواسطة النباتات الطبّية (بغلقة عطين)، والغلقة "هي شجرة لها لبن تعطن وتعفن وتدهن بها جلود الإبل"[١] عندما تصاب بالجرب ولها فوائد طبّية عديدة للحيوانات.

فمن خلال هذه الألفاظ ظهرت لنا البيئة الطبيعيّة لصحراء الحجارة، فالمزرد استلهم ألفاظَه من المياه والجبال والحيوان والنبات وعرضها معارض شتّى، فكانت مصدرَ الإلهام بسحرها وجمالها.

٣) النشاط الاقتصادي:

فرضت طبيعة الجزيرة العربيّة على أهلها نمط حياة اقتصادية خاصة، كما فرضت عليهم أنماط الحياة الأخرى، فكلَّما جادت السماء بالغيث كثُرت المراعي والأنعام وشبع الأعراب، وإذا احتبس المطر جفَّتْ الموارد ويبس العشب وظمئ الإنسان والحيوان، ورحل القوم إلى أرض أخرى، "لذلك كانوا يعيشون عيشة بدوية تعتمد على رعي الأغنام والأنعام، وكانوا لا يفضّلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية. لا يفضّلون الزراعة ولا الصناعة بل يحتقرونها ويزدرونها"[٢]؛ لأنّ الزراعة تعني الالتصاق بالأرض مثلما الصناعة تتطلب الاستقرار إلا ما تحتاجه ضرورة حياتهم؛

---

[١] شرح الأنباري، ص ١٣٧ .
[٢] انظر، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ٧٧.

كصناعة السيوف والرماح. وذكر المزرد تلك الأسلحة في الأبيات (٣٢،٣٣) فصرّح بلفظ الأسياف، والرماح، والقنا وهو دليل على معرفة تلك الأسلحة وصناعتها. والغالب أنهم كانوا يستوردون الأسلحة من الشعوب الأخرى.

الرعي:

نرى بأنّ اقتصاد العرب كان يعتمد على الرعي واقتناء المواشي، فكان البدو يمتلكون الكثيرَ من قطعان الأغنام والإبل وأنواع الماشية المختلفة.[١] فكانت جُلَّ نشاطهم الاقتصادي، يعتنون بها ويستكثرون منها، فكان الرعي حاضراً بألفاظه في الأبيات (٤،٥،١١،٢١،٢٣). وذكر المزرد مظاهرَ الرّعي في تلك الأبيات إذ كان يشكّل الثروة الوحيدة لأهل البادية، وهذا ما جعلهم يبحثون عن الماء والكلأ دون ملل للحفاظ على هذه الثروة، وكان الإبل من أهمّ حيوانات مراعيهم.

المقايضة:

"كان أهل الوبر أو البدو إذا احتاجوا إلى غير ما تُنتجه ماشيتُهم تعاملوا عن طريق البدل، فاستبدلوا بالماشية ونتاجها ما يتطلّبون من تَمر ولباس وغير ذلك من المأكول والملبوس"[٢]، وهو ما يُعَرف بـ (المقايضة)، وهو نظام تبادل السلع دون النقود. وكان هذا النظام معروفاً في الحياة العربيّة القديمة لعدم وجود عملة في ذاك الوقت. ورأينا هذا النظام في القصيدة في البيت (٩) في قول المزرد "باعا بأعنز" فدلّ على مقايضة الغلام لابن ثوب، ولكن المزرد صوَّرها بالمقايضة الخائنة والخاسرة لأنّه قايض الإبل مقابل الغنم؛ لأن العرب كانوا ينتقصون رعاء الشاء ويرَوْن القوة في رعاة الإبل، فكان هجاء المزرد بأكمله لإبطال تلك المقايضة وردّ الإبل إلى أصحابها.

---

(١) انظر، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص٨١.

(٢) الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، حنا فاخوري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م، ص ٧٨ .

الدباغة:

تعدُّ الماشية المصدرَ الرئيسي للجلود، بينما تمثّل جلود الإبل والماعز هذا المصدر الرئيسي، وهي تستخدم في صناعة الدباغة، فكانت تُدبغ من بعض النباتات مثل الزعفران والغيقة لتعطي الجلود صلابة ومقاومة للأمراض وعوامل الطبيعة.

ففي البيت (١٠) دلّت لفظة "المجاسد" على دباغة جلود الإبل بالزعفران، إذ كانت الإبل على أوبارها صبغاً "كالمجاسد وهو الثوب المشبع صبغاً بالجساد وهو الزعفران".[١]

إذاً، فالنشاط الاقتصادي كان مرتبطاً بالماء والكلأ، فإنْ توافرَتْ توافر المرعى والصناعة والتجارة بالإبل وألبانها.

٤) صفات الأمة العقلية:

عند دراسة الحياة العقليّة للعرب قديماً يجب معرفة أنّ العقلية طابع تتميّز به أمّة من غيرها من الأمم وهذه العقلية يمكن إدراكها من خلال المعاملات بين أفراد تلك

[١] المفضليات، تح، محمود شاكر، عبدالسلام هارون، ص ٧٧

الأمة وغيرها من الأمم الأخرى، فنلاحظ في أبيات القصيدة أنّ سكان هذه المنطقة "كانوا من أهم معارفهم الطبية معارفهم البيطريّة، وخاصة فيما اتصل بالإبل، فقد عرفوا شياتها وما يزيّنها وما يَعيبُها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوونها به".[١]

إذ عرفوا فوائد النباتات التي تعالج أمراض حيواناتهم، فذكر المزرد في البيت (٢٥،٢٦) وصف ما يصيب الإبل من الجرب والطاعون وقيامهم على علاجها بالنباتات الطبيّة كالغلقة يقول:

بهنّ دروء من نحازٍ وغدة　　لها ذربات كالثدي النواهـــد

جربن فما يهنأن إلا بغلقـة　　عطينٍ وأبوال النساء القواعد

يصف المزرد الإبل المريضة بالنحاز وهو السعال من داء يأخذ من الرّئة، وقد كان الأعرابيُّ على علم بأمراض الإبل وكذلك مرض الغدّة، فهو داء يصيب الإبل في لهازمها وبطونها فيظهر لها حجم على هيئة الخراج لها رؤوس، والغدّة تُسمّى بطاعون الإبل، أي يصيب الإبل الطاعون ويجعلها يشتدّ عليها السعال"[٢]. فيصف الشاعر المرض الذي يحِلُّ بالإبل ولا يذهب هذا الجرب إلا بتعطين جلودها بنبات الغلقة ثم دبغها لتبرأ منه، وأشار إلى نبات آخر كانوا يستخدمونه لعلاج جلود إبلهم وجعلها أكثر مقاومة لعوامل البيئة، وهو مجاسد الزعفران، فكانت المعالجة البيطريّة من أعمالهم التي تميَّزوا بها عمَّن سواهم، وكذلك قدرتهم على تعليل الأمور ومعالجتها.

---

[١] العصر الجاهلي، شَوقي ضيف، ص ٨٤.
[٢] شرح الأنباري، ص ١٣٦.

وأشار المزرد بصورة، أبوال النساء القواعد، دلالة على تداوي العرب قديماً بأبوال الأنعام وخاصة الإبل، باعتقادهم معالجتها لبعض الأمراض في الطبّ الشعبي، وهي دلالة تُميّز سكان هذه المنطقة من غيرها من المناطق.

[عن حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن نَفَرًا من عُكل قَدِمُوا على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فبايعوه على الإسلام فاستوخموا الأرض وسقمت أجسامهم، فشكَوْا ذلك إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها؟ فقالوا: بلى، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِن أبوالها وألبانها فَصَحّوا].[١] وفي هذا الحديث دليل على التداوي بأبوال الإبل.

وأراد المزرد بلفظ "أبوال العجائز"، التشنيع وتهويل المرض وصعوبة معالجته.[٢]

كذلك أخذ الشعر مكانةً كبيرة بين القبائل، "فالقبيلة العربيّة إذا نبغ فيها شاعر محدَّد فإن القبائل الأخرى تأتي لتهنئتها، فتقام الولائم وتجتمع النساء كما في الأعراس"[٣]، فالشاعر يأخذ مكانة مميّزة، فهو بمنزلة المتفوّق على بقية الأفراد.

فالشاعر يوجد في مكان من تجب حمايته، إذ كانوا يخافون الهجاء في الشعر أكثر من خوفهم من الرّماح والسيوف، فالشاعر من الشخصيات المؤثّرة في مجتمع الحجاز.[٤]

٥) عقائد الأمة:

لا شكّ أنّ الإسلام بمبادئه ومفاهيمه الجديدة أحدث نقلة فكريّة في صميم الحياة كلّها انعكست آثارها على مضامين الشعر العربيّ، والواقع أننا لا نستطيع الحكم على

---

(١) المسند الصحيح، مسلم النيسابوري، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٢٦٩/٣.
(٢) شرح الأنباري، ص ١٣٧.
(٣) العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق، محمد محي الدين عبدالحميد، ج ١، دار الجيل، بيروت. لبنان، ص ٦٥.
(٤) موقع، تاريخ قبيلة جهينة.

قصائد المخضرَمين في كونها نُظِمت في مرحلة إسلامهم أو قبله، فقصيدة المزرد تحتمل أنها قِيلت في الإسلام بدلالة البيت.

فنعمت لقاح المحل يهدي زفيرها سرى الضّيف أو نعمت مطايا المجاهد

إذ وصف المزرد الشيخ الذي استجار به من ابن ثوب حين أخذ تللك الأبل بـ (مطايا المجاهد)، والجهاد مصطلح إسلامي لم يكن معروفاً من قبل بهذا المعنى الذي اتخذه للإبل.[١]

و كانت الأعراف القبليّة والتقاليد البدويّة هي الحاكمة في شؤون حياتهم، فقدّسوها وتمسّكوا بها تمسُّكاً شديداً، وكان منها ما هو إيجابيّ وما هو سلبيّ في المجتمع.

فمن العادات الإيجابية:

الكرم:

يُعدُّ الكرم من أهمّ ما تميَّز به المجتمع البدويّ، فقد كان في حياتهم قيمةً خلقية عالية، ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة إكرام الضيف، وتقديم حقّ الضيافة لـه مهما كانت درجة تلك الضيافة ومنزلة المضيف، يقدم له ما يقدر عليه[٢] وما يتسع، وظهرت هذه القيمة في قصيدة المزرد يقول:

وعهدي بكم تستنقعونَ مشَافراً من المَحضِ بالأضياف فوق المناضدِ

حسن الجوار:

كانت المحافظة على الجار ونصرته مظهراً من مظاهر البطولة الاجتماعية لدى الفارس البدوي، الذي كان حريصاً على أَن يحمي الضعيف، ويدفع عنه الظّلم، ويتمثّل هذا الخُلُقُ الكريم في إسباغ الحماية على فردٍ أو جماعة، لذلك حرص المزرد على

---

(١) انظر، الصورة الفنية في المفضليات، تأليف، الدكتور زيد بن محمد بن غانم الجهني، ص ٩٣٧.
(٢) انظر، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ٦١.

تحقيق هذه القيمة باسترداد الحقوق ونصرة الضعيف والوقوف في وجه المعتدي، فهو اتخذ من الهجاء طريقاً لتلك القيمة ونصرة الملهوف. وتجلّى ذلك في الأبيات (٧،٨)، ففيها وصف استغاثة والد الغلام بأن يردّ الإبل التي أخذها منه ابن ثوب سفاهة، فكان الهجاء بأسلوب التهديد والوعيد لاسترجاع الحقّ لأصحابه، فالعربي بطبعه جاف يثور لكرامته، ويعتزّ بمكانته، ويدافع عن نفسه وعمن جاوره فحق الجار شيمة يعتزون بها. [١]

وفي الأبيات (١٢،١٣) هجا المزرد مَن تقاعَس وفرّط في حقوق الجوار "فيجب على البدويّ إذا نزل به جار أضافه وأعانه وحفظ له كلّ ما يمكن من حقوق الجوار"[٢]. ففي الأبيات وصفٌ لجارات ابن ثوب وما لحق بهنّ مِن أذى بسبب التفريط في حقّ الجوار.

وفي البيت (١٩) رفض المزرد السفاهة والضرر للآخرين.

الوفاء بالعهود والذمم:

يتميّز العربيُّ في حياته الاجتماعية بالقِيم التي تُمليها عليه الحياة في الجزيرة العربيّة، ومن هذه القِيم الوفاء بالعهود والذمم، وهي من القيم التي اكتسبها العربيُّ من بيئته، إذ يَكره العربيُّ الخيانة والغدر.

وهي من الصفات التي تربَّى عليها العربيُّ كالكرم والجود، فالبيئة بقساوتها وصلابتها قد علّمتهم الوفاء.[٣]

وقد أشار المزرد إلى الوفاء بالعهد والذمّة في البيت (١٦) بقوله بأن ردّ الحقوق إلى أصحابها هي من العفاف والتُّقى، بقوله:

فردّوا لِقاح الثعلبيّ، أداؤها أعفُّ وأتقى من أذى غير واحد

---

(١) انظر، المفضليات، وثيقة لغوية وأدبية، د. علي أحمد علام، دار أبها للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ه/١٩٨٤م، ص ٢١٩.

(٢) انظر، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ٦٩.

(٣) انطر، المرجع السابق، ص ٦٩.

ووصف العهد والذمة في البيت (٢٨) بالحبل المتين يقول:

فيا لهفى أن لا تكون تعلّقت بأسباب حبلٍ لابن دارة ماجِد

التحالف:

والذي يُعدُّ قوام الحياة البدوية، "وأصل الحِلف والتحالف من كلمة الحَلفِ بمعنى اليمين الذي كانوا يُقسمونه في عهودهم، وكانوا يغمسون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طِيب أو في دم"[١]، فالاتحاد القبلي يلعب دوراً مهمّاً في تكوين القبائل إذ كانت تنضمّ القبائل الضعيفة إلى القبائل القوية لتحميها وتردّ عنها العدوان وتنصرها على الأعداء، وهو تضامنٌ يحرص على الشرف والمروءة مدفوعة بعصبية شديدة سيطرت في نفوسهم وقدّسوها تقديساً أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية.[٢]

وهذا ما تجلّى في الأبيات (٢٨،٢٩،٣٠،٣١) عندما طلب المزرد حماية القبائل للغلام ونصرته على من اعتدى عليه. إذ هم تمدّحوا بإغاثة الملهوف، وحماية الضيف، والأنَفة، وإباء الضَّيم، فكيف يقبلون الضَّيم وهم أهل حرب وجلادة؟

---

[١] العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ٥٨.
[٢] انظر، المرجع نفسه، ص ٥٨، ٦١ .

الشجاعة:

وهي من الصفات التي اتّسم بها العربيّ وقدّسها وافتخر بها وبأهلها، ونالت الكثير من الألفاظ في شعرهم، فتلك الصحراء منحتهم الشجاعة.[١]

فتعدّدت ألفاظ الشجاعة وصفاتها في القصيدة، وتركزت في الأبيات (٢٩،٣٠،٣١،٣٢،٣٣)، إذ وصف المزرد قوة القبائل وشجاعتها فهم أهل حرب وإقدام.

العادات السلبية:

البخل:

ويُعدُّ البخل من العادات السلبيّة في المجتمع العربي، ذمَّه المجتمع ونادى إلى هجائه، فالمجتمع به الكريم وبه البخيل، فكان منهم من يزدري الفضيلة ومنهم من يقدّسها.[٢] وأشار المزرد إلى هذه العادة السلبيّة عندما هجا ابن ثوب بتركه جاراته وانشغاله بالتُّخمة يقول:

أزرع بن ثوب إنّ جارات بيتكم هزلن وألهاكَ ارتغاء الرغائد

---

[١] انظر، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ٧٩.
[٢] انظر، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ١٧٢.

الغدر والخيانة:

وهي عادةٌ يرفضها العربيُّ، فبالرغم من الوفاء الذي يسود مجتمعهم والعلاقات الاجتماعيّة الحميمة والوثيقة، إلّا أنّه يبقى مجتمعاً بشرياً يسوده المحمود والمذموم، فالمزرد هجا ابن ثوب لخيانته وغدره للغلام، وَاستغلال ضعفه وصغر سنه وأخذ إبله، فوصفَه مع قبيلته بالخيانة والغدر، وأشار لذلك في الأبيات (١٩،٢٧،٣٤).

واستخدم المزرد الهجاء كتعبير دينيّ كانوا يعتمدون عليه "فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقرَن بما كانت تُقرَن به لعناتُهم الدينيّة الأولى من شعائر، ولعلّهم من أجل ذلك كانوا يتطيّرون منه ويتشاءمون، ويحاولون التخلّص مِن أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ونحن نعرف أنّ الغزو والنَّهب كان دائراً بينهم، غير أنّ المُغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلاً بينَها إبل لشاعرٍ، وتعرّض لهم وتوعدهم بالهجاء، اضطُّرّوا اضطراراً إلى ردِّها أو على الأقلّ يردُّون مالَه وإبلَه".[١]

فعندما استنجد والد الغلام بالمزرد ليرجع له إبله التي أخذها منه ابن ثوب، فتوعّده وهدّده بأنها ستكون ناراً تأتي على الأخضر واليابس وستقضي على ابن ثوب وقومه وسيصيب الإبل الجرب والأمراض المستعصية.

٦) طبقات المجتمع:

مثلما فرضت الصحراء على العربِ الترحال، فرضت عليهم العيش في المجتمع القبليّ بوجهه السياسيّ والاجتماعيّ؛ إذ تتألّف القبيلة من ثلاث طبقات: أبناؤها، وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب، وهم عمادها وقوامها. والعبيد، وهم رقيقها المجلوبون من البلاد العربية. والموالي والعتقاء"[٢]. وقد أشار المزرد إلى طبقة العبيد في البيت (٤) بقوله:

معاهد ترعى كل رعلة غرابيبُ كالهند الحوافي الحوافِدِ.

---

[١] العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ١٩٧.
[٢] المرجع نفسه، ص٦٧.

فقد شبّه النعامَ برجال الهند للسواد والدقّة في أرجلهم، وهي إشارة لوجود طبقة العبيد التي كانت في مجتمع المزرد.

أمّا أبناء القبائل الذين كانوا عماد القبيلة وقوامها وعنوان قوتها فقد أشار لهم في الأبيات (٢٨،٣٠،٣١،٣٢)، فكانوا متضامنين أشدَّ ما يكون التضامن وأوثقه، وكانوا مثال الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار، ولعلّ خير كلمة تجمعهم هي كلمة المروءة التي تضمّ مناقبَهم.[١]

وكان في كلِّ قبيلة طائفتان: طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة ويملكون مئات الإبل، وطائفة الفقراء الذين لا يملكون شيئاً.[٢] فمنذ بدء الخليقة جعل الله سبحانه وتعالى المال مقسماً بين عباده، وظهرت طبقة الفقراء في القصيدة في البيت (٨،٩،١٢،١٣)، فالمزرد صوّر السوء والأذى وضعف الحال الذي أصاب هؤلاء الفقراء، أمّا طبقة الأغنياء فكانت في الأبيات (١٢) "ألهاك ارتغاء الرغائد"، أي هي التُّخمة من شرب اللبن والخصب الوفير.

٧) الحياة الوجدانية:

استهلَّ المزرد قصيدته بعواطف الحبّ والشوق والحنين لمحبوبته سلمى، فوقف على ديارها مستنجداً بقومه لإغاثته من معاودة ذكراها له ويبين كيف أصبحت مساكنها بعد أن خلت مساكن للوحش الوقوف ، يقول:

ألا يا لقوم والسَّفاهةُ كَاسْمِها أعائِدتي من حُبِّ سَلمَى عَـــوائدي

سُـــوَيْقَةُ بَلْبَالٍ إلـــى فَلَجاتِها فَذي الرِّمْثِ أبكتْني لِسَلْمى معاهِدِي

ففي البيت (١) استنجد المزرد بقومه لِما وقع به من الحبِّ والصبابة بعد رحيل محبوبته، والبيت (٢) ذكر عاطفةَ الشوق والحنين لتلك الأيام التي قضاها مع محبوبته والأماكن التي جمعتهما، وهو يُبدي غَيْرته وحرصه عليها.

---

(١) انظر، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ٦٧

(٢) انظر، المرجع نفسه، ص ١٧٢.

وفي البيت (٨) صوّر حالة الحزن والأسى التي أصابت الشيخ والعجوز عندما خُدع الغلام وتعرّض لغدر ابن ثوب وأخذ منه الإبل، حتى أصبحوا في حالة فقر يُرثى لها:

تَأَوُّهُ شَيخٍ قاعِد وعَجُوزِهِ حَرِيبينِ بالصَّلْعَاءِ ذَات الأسَاوِدِ

والبيت (١٥)عبّر فيه عن حالة العداوة والغيظ والكره لابن ثوب:

صَعَقتُ ابنَ ثَوبٍ صَعْقَةً لاحِجى لها يُولْوِلُ منها كلُّ آسٍ وعائِدِ

فتوعّده بالهجاء في البيت (١٧) لِما فعله من سفاهة بحقّ الغلام، فالهجاء يأذي المهجوَّ أكثر من التهديد بالقتل، إذ كان الهجاء سلاحاً ماضياً في قلوب الأعداء فهم يخافون القوافي والأوزان أكثر من الرّماح والسنان.[١]

فإنْ لَم تَرُدُّوها فإنّ سَماعَهَا لكم أَبداً من باقِياتِ القَلائِدِ

٨) مجالات الدلالة:

شكّلت المفردات الحسّية في القصيدة عنصراً أساسياً في رسم الصورة وتشكيلها،"فالشاعر يستقي من العالم الحسي المترامي حوله" [٢] لأنَّ البيئة البدوية تغلِبُ عليها الحسّية لأنها أقوى في الدلالة على المعنى والإحساس به من الصور العقلية، فكانت الحسيَّة تتناسب مع رؤيتهم المستقاة من البيئة لتصنع حقلاً يستمدُّ منه الشاعر عناصرَ الصورة والخيال ويجسّد فيها الواقع، "فكان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيواناتها وزواحفها وطيرها" [٣] فمنها ما كان مصدرَه الإنسان أو الحيوان أو الطبيعة، ومنها ما كان متعلّقاً بثقافة الشاعر ونظرته إلى الحياة والوجود، ولمَسنا بعض الدلالات الحسّية والمعنوية التي تجلّت في قصيدة المزرد.

---

[١] انظر، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص٢٠٠.
[٢] المرجع نفسه، ص ٢٢١.
[٣] المرجع نفسه، ص ٢١٩.

المكان والطلل:

اهتمّ المزرد بن ضرار بالطَلل الذي آل بالمكان فأصبح مقفراً خالياً مستعيناً بالحيوانات ليدلّ على استحلالها المكان بسبب رحيل سكانه عنه، وتجلّى ذلك في الأبيات (١،٢،٣،٤،٥).

وكان لذكر أسماء الأماكن في معظم القصيدة دلالة ترجع إلى ارتباط الشاعر الوثيق بأرضه وبيئته وتجاربه التي عاشها، فهو يحدّد المكان بأسمائه الحسّية وكانت تلك الألفاظ متناثرة في معظم القصيدة، ومنها (معاهد، ذي الرمث، الرضوى، دار جهينة، أبانين....).

وأشار إلى بيئة هذا المكان بوصف حجارتها القاسية في الأبيات (٩،١٠):

وعالا وعاما حينَ باعا بأعنزٍ وكلبَيْنَ لـــعبانيّةٍ كـــالجلامد

هِجاناً وحُمراً مُعطِراتٍ كـأنَّها حصى مَغْرَةٍ ألوانُها كالمجاسِدِ

فقد شبّه الإبل بالصخر وشبّه ألوانها بالحصى في أرضٍ طينيّة حمراء وبالثياب المصبوغة بالزعفران.[١]

الأسلحة:

دلّت ألفاظ السلاح بأنواعها المتعدّدة من السُّيوف والرّماح وغيرها على قوة القبائل وشجاعتهم وبُطولاتهم ونصرتهم لجيرانهم، ومنها يقول المزرد:

مصاليتُ كالأسياف ثمّ مَصِيرُهم إلى خَفِراتٍ كالقنا المُترائِدِ

مصاليت كالأسياف، شبّه المزرد الفرسان بالأسياف المصلتة، وفي الشطر الثاني خفرات القنا، شبّه القنا بالنساء الحييّات، وهي من الصُّور الحسّية.[٢]

---

[١] انظر، شرح الأنباري، ص ١٣١.
[٢] انظر، المرجع نفسه، ص ١٣٨.

الإنسان:

اهتمّ الشاعر بتصوير الإنسان بصوَر حسيّة، وذلك من خلال التعامل والتواصل معهم، ومنهم علاقته مع المرأة، وتصوير المجتمع بسلوكه وقِيَمه بألفاظ حسيّة تارة ومعنوية تارة أخرى، سرد من خلالها قصّة الغلام الذي تعرّض للخيانة من قِبل ابن ثوب وأخذَ إبلَه، وما قابلها عند الشاعر من القيَم المُثلى وعدّد مَن هم معه يساندونه في أمره.

الحيوان:

وهو الذي أمدّ الشاعرَ بالصُّوَر المختلفة التي دلّت على صفاته وأنواعه وميّزاته، وفصّل المزود الحديث فيه تفصيلاً شديداً بكل دقائقه وتفاصيله، ومن هذه الصور.

البيت (٣) شبّه النعام لسواده ودقّة ساقَيه بالهند الحفاة، وقد يراد بالحوافد مشيٌ فيه تقارُب وهو دلالة عن السعي والسرعة.[١]

البيت (١١) "تدقق أوراك"، صورة دلّت على القوة والصلابة للإبل التي اكتسبتها من طبيعة التّرحال.[٢]

ومن بعض الألفاظ الحسّية والمعنوية التي تصنَّف في مجالات الدلالة:

البيت (٨) "شيخ قاعد"، دلالة على من قعد عن الكسب والعمل بسبب الشيخوخة وضعف الحال.

البيت (٩) "عالا وعاما"، صورة دلّت على فقر الحال.[٣]

البيت (١٠) "المجاسد"، وهو الثوب المشبع صبغاً بالزعفران الأحمر الذي دلّ على لون وبر الإبل القويّة.

---

[١] انظر، شرح الأنباري، ص ١٢٨ .
[٢] انظر، المفضليات، تح، أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ص٧٧.
[٣] انظر، المفضليات، تح، أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، ص ٧٦.

البيت (١٢) "جارات بيتكم هزلن"، دلالة على التشنيع بسبب ظلم المحترم بالجوار وحرمانهم من الفضل وهو أفظع في المقام من ظلم من لا حرمة له".[١]

البيت (١٣) "القدائد"، دلالة على الضرّ والهزال الذي أصاب جارات ابن ثوب، فهو كالأذى الذي يصيب قدائد اللحم". [٢]

البيت (١٧) "القلائد"، أي الهجاء كالقلادة في العنق"[٣]، وهو دليل على قوّة فعل الهجاء بالمجتمع.

البيت (١٩) "كغصن البان المتغايد"، شبّه الشاب الذي خدعه أحدُهم عن إبله بالغصن لنعومته وهو دليل على صِغر سنّه. [٤]

البيت (٢٢) "عاعى ابن ثوب"، مدلول معنوي يهجو المزرد الرجل بأنّ اقتناء الإبل ليس من شأنه وأنّه دخيل في ذلك، فهو لا يعرف سوى ما تعوّده من الغنم".[٥]

البيت (٢٤) "نار تلظى"، دلالة على أنّ المال الذي يُكسب بالخيانة نار لا يَحِلُّ أكله".[٦]

وفي البيت (٢٦) "أبوال النساء القواعد"، دلالة على معارفهم الطبّية بالتداوي ببول الأنعام وخاصة الإبل، وإشارة المزرد بالقواعد من النساء التشنيع بالمرض بأنّه نتن وبلاء ولا يداوى إلا بمنتنٍ من الأمر، فيقول جربت فلا تهنأ إلا بأبوال النساء للتفظيع بالأمر".[٧]

البيت (٢٨) "أسباب الحبل" دلالة معنوية على العهد والذمّة".[٨]

---

[١] شرح التبريزي، ص ٣٧٥.
[٢] المرجع نفسه، ص٣٧٦.
[٣] المرجع نفسه، ص٣٧٩.
[٤] انظر، شرح الأنباري، ص ١٣٥.
[٥] شرح التبريزي، ص٣٨٢.
[٦] المرجع نفسه، ص٣٥٨ .
[٧] شرح الأنباري، ص ١٣٧.
[٨] شرح التبريزي، ص٣٨٨.

البيت (٣٤) "في مرقب متناذر"، شبّه المكان الذي نزلت به إبل الشيخ وعجوزه، بالمرقب المخوف".[١]

البيت (٤٣) "مشافراً"، أطلق المزرد لفظة مشافر وهي شفاه الإبل، وقد استعارها للناس"[٢]، وهو دليل على تعلُّقه بالبيئة البدوية وحيواناتها، أما لفظة المناضد، التي تعني الأسرة" [٣]، وهي لفظة حضرية ودلالة على أنّ المزرد خالط الحضر من خلال القوافل التي كانت تمرّ من صحرائهم، إذ كانت القبائل العربيّة البدويّة تقوم بحمايتها. [٤] فنقلوا بعض عاداتهم وتقاليدهم نتيجة اختلاطهم.

الخاتمة:

تزاحمَتْ مظاهرُ البداوة في قصيدة المزرد بن ضرار من خلال معطَيات الارتحال والسفر والتنقل والانتجاع؛ لذا يمكن أن يعرّف البدويُّ بوصف معيشته، وتنقُّله وترحاله وأدواته. ومُصطلح البداوة يتقارب في معناه اللغوي من المعنى الاصطلاحي، فالبداوة نمط حياة لأناس طغت على حياتهم أجواءُ الصحراء، فتأقلموا معها؛ ليستطيعوا العيش في تلك الصحراء الملتهبة. تلك الصحراء التي أثَّرت في كل شيء فيهم، في عاداتهم وتقاليدهم، وطعامهم وشرابهم، في حربهم وسلمهم، فالبدوي نتاجُ ظروف بيئته العريضة بكلّ قسوتها وصعوبة الحصول على إمدادات الحياة فيها، ولعلّ هذا ما طبع حياة البدويّ بازدواجية تتجاذب أطرافها مزاجه النفسي بحيث إن القيم والسلوكيات التي يعيش عليها ولأجلها قد تبدو متناقضة.

---

[١] المفضليات، تحقيق أحمد شاكر، عبد السلام هارون ص .
[٢] المفضليات، تحقيق أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ص ٨١.
[٣] المصدر نفسه، ص ٨١.
[٤] موقع، تاريخ قبيلة جهينة .

نتائج الدراسة:

ويمكن إبراز أهمّ النتائج التي توصّلت إليها الدراسة:

١. أنّ البدو ظاهرة عريقة في المجتمع العربي وُجدت منذ أن وجِد ذلك المجتمع، وهي ظاهرة مستمرّة إلى يومنا هذا، وقد ارتبط البدو بالصحراء مكاناً يعيشونه، يؤثِّرون ويتأثَّرون فيه.

٢. حمل البدو منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحاضر عادات وتقاليد وقيَماً، توارثوها من جيل إلى جيل، هي سلبية في بعض جوانبها مثل: الثأر والتعصب القبلي، وإيجابية في أكثرها مثل: الكرم، والفروسية، والإجارة، وغيرها.

٣. وقد أظهرت النتائج من خلال استقراء تاريخ البدو والصور الشعريّة المتناثرة

في شعر المزرد، أنهم اعتمدوا على عناصر محدودة في رزقهم، فكان بعض الصيد ورعي الأنعام ومعالجتها.

٤. وبيّنت الدراسة أنّ أهم مصادر الصورة في شعر المزرد بن ضرار كانت مستمدّة البيئة المحيطة بهم، بما حوَت مِن حيوانات ونباتات، وظواهر طبيعية، وقد دلّ بها على حياة البدو في ذلك العصر، وغلب عليها نمط الحسيّة التي تماشت مع طبيعة حياة البدو القاسية.

نورة محمد فواز طرابيشي

قائمة المراجع والمصادر

١) القرآن الكريم.
٢) الأمالي، تأليف أبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج ٣.
٣) الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، حنا فاخوري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
٤) ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني، تحقيق خليل إبراهيم العطية، مطبعة أسعد، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ، ١٩٦٢م.
٥) شرح اختيارات المفضل، الخطيب التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٦) الصورة الفنية في المفضليات، الدكتور زيد من محمد بن غانم الجهني، مكتبة الملك فهد الوطنية، وزارة التعليم العالي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، ١٤٢٥.
٧) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، الطبعة السابعة، دار المعارف، مصر القاهرة، ١٩١٩م.
٨) العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، ج ١، دار الجيل، بيروت. لبنان.
٩) الفهرست، ابن النديم، دار المعرفة، بيروت – لبنان.
١٠) المفضليات، وثيقة لغوية وأدبية، الدكتور علي أحمد علّام، دار أبها للثقافة والنشر، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.
١١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، الجزء ٢، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
١٢) المسند الصحيح، مسلم النيسابوري، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٣) معجم الأدباء، إرشاد الأريب في معرفة الأديب، تأليف ياقوت الحموي الرومي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ٦.
١٤) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
١٥) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن العزيز البكري الأندلسي، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب. بيروت، الجزء الثالث.
١٦) المفضليات مع شرح وافر لابن الأنباري، تحقيق كارلس يعقوب لايل، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت ١٩٢٠م.
١٧) المفضليات، المفضل الضبيّ، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، دارالمعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.
١٨) موقع، تاريخ قبيلة جهينة على ويكيبيديا.

الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١
المدخل	٢
المبحث الأول:	٤
اسمه وكنيته	٤
مكانته العلمية	٤
ولادته ووفاته	٥
أسباب جمعها	٥
عدد قصائد المفضليات	٦
شروح المفضليات	٦
منهج المفضل الضبي في المفضليات	٧
المبحث الثاني:	٨
لمحة عن حياة الشاعر المزرد بن ضرار	٨
وفاته	٨
شعره	٩
هجاؤه	٩
المبحث الثالث:	١٣
الحالة الحضارية	١٣
البيئة الطبيعية	١٨
النشاط الاقتصادي	٢٣
صفات الأمة العقلية	٢٦
عقائد الأمة	٢٧
طبقات المجتمع	٣٢
الحياة الوجدانية	٣٣
مجالات الدلالة	٣٤
الخاتمة	٣٨
نتائج الدراسة	٣٩
قائمة المراجع والمصادر	٤٠
الفهرست	٤١